تفسير سورة طه

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

اللقاء السابع

أبرز القضايا والمحاور في السورة وعلاقتها بموضوع السورة: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسول -ﷺ-ودلالات السورة عليها: قست قلوب المشركين، فقسوا على الرسول -ﷺ-، فلم يدعوا أسلوباً أو طريقة إلا سلكوها في إيذاء النبي -ﷺ-، فجمعوا له بين الإيذاء النفسي المعنوي والجسدي، في الوقت الذي كان النبي -ﷺ- حريصاً أشد الحرص على إيمانهم وإنقاذهم. ونزلت سورة (طه) لتعبر تصريحا وتلميحا عما لقيه النبي -ﷺ- من خلال الآيات التي فيها التسلية للنبي -ﷺ-، والأمر بالصبر، فنفى الله في افتتاحيتها أن يكون تنزيل القرآن عليه شقاء، وإنما هو تذكرة لمن يخشى، وهي دعوة لهم للتذكر والخشية، كما تضمن إشعاره -ﷺ- بالأنس –في غمرة أهل الشرك- لأن الله تعالى معه بعلمه إذ يعلم الجهر والسر، بل يعلم ما هو أخفى من السر. وفي السورة تهديد للمشركين المكذبين للرسول -ﷺ- المفهوم من قوله تعالى: (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) وفي قوله تعالى:(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ)(موسوعة التفسير الموضوعي)

المعنى الإجمالي: من الآية (79) إلى الآية (98):

يقولُ اللهُ تعالى مذكِّرًا بنى إسرائيلَ بنِعَمِه عليهم: يا بني إسرائيلَ قد أنجَيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، وواعدْناكم جانِبَ جبَلِ الطُّورِ الأيمَنَ؛ لإنزالِ التَّوراةِ عليكم، ونزَّلْنا عليكم الرِّزقَ الطيِّبَ الذي تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ. كُلُوا مِن رِزقِنا الطَّيِّبِ، ولا تعتَدُوا فيه بالجُحودِ وتَركِ الشُّكرِ؛ فيَحِقَّ عليكم غَضَبي، ومَن يَحِقَّ عليه غَضَبي فقد هلك وخَسِرَ. وإنِّي لَغفَّارٌ لِمَن تاب مِن ذَنبِه وكُفرِه، وآمَنَ بي وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ، ثمَّ اهتدى إلى الحَقِّ واستقامَ عليه حتَّى مَماتِه.

يخبرُ الله تعالى عن فتنةِ قومِ موسَى عليه السلامُ، وإضلالِ السامريِّ لهم، بعدَ أنْ ذهَب موسَى عليه السلامُ لمناجاةِ ربِّه، فيقول تعالى: وأيُّ شَيءٍ أعجَلَك عن قَومِك -يا موسى- فسبقتَهم إلى الطُّورِ؟ قال: إنَّهم خلفي سوف يَلحَقونَ بي، وسبقتُهم إليك -يا ربِّي- مُسارعةً في رِضاك! قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك بعدَ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ، وأَضَلَّهم السَّامريُّ، الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن رجوعِ موسَى عليه السلام إلى قومِه، وما قاله لهم، فيقول تعالى: فرجَعَ موسى إلى قَومِه غَضبانَ عليهم حزينًا، وقال لهم: يا قومِ، ألم يَعِدْكم ربُّكم وعدًا حَسَنًا، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك؟! أفطال عليكم العَهدُ واستبطأتُم الوَعدَ؟! بل أردتُم بفِعلِكم هذا أن يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ مِن رَبِّكم، فعَبدتُم العِجلَ، وتركتُم الالتزامَ بأوامري!

ثمَّ يحكي الله سبحانَه عمَّا اعتذروا به مِن اعتذاراتٍ واهيةٍ، وتبريراتٍ سخيفةٍ، فيقول تعالى: قالوا: يا موسى، ما أخلَفْنا مَوعِدَك باختيارِنا، ولكنَّا حُمِّلْنا أثقالًا مِن حُليِّ قَومِ فِرعَونَ، فألقَيناها في النَّارِ، فكذلك ألقى السَّامريُّ ما كان في يَدِه، فأخرَجَ السَّامريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُليِّ عِجلًا جَسَدًا يخورُ خُوارَ البَقَرِ، فقال السَّامِريُّ والمفتونونَ به منهم: هذا هو إلهُكم وإلهُ موسى، نَسِيَه موسى وغَفَل عنه هنا. أفلا يرى الذين عَبَدوا العِجلَ أنَّه لا يُكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم جَوابًا، ولا يَقدِرُ على دَفعِ ضَرٍّ عنهم، أو جَلبِ نَفعٍ لهم؟!

يقولُ الله تعالى مبينًا موقفَ هارونَ عليه السلامُ، مِن هؤلاءِ الجاهلينَ الذين عبَدوا العجلَ: ولقد قال هارونُ لبني إسرائيلَ مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قَومِ، إنَّما اختُبِرتُم بهذا العِجلِ؛ ليظهَرَ المؤمِنُ منكم مِن الكافِرِ، وإنَّ رَبَّكم الرَّحمنُ لا غَيرُه؛ فاتَّبِعوني فيما أدعوكم إليه مِن عبادةِ اللهِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به. قال عَبَدةُ العِجلِ: لن نزالَ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ حتى يرجِعَ إلينا موسى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما قاله موسَى لأخيه هارونَ، وما فعَله به، لَمَّا رجَع ورأَى ما حدَثَ، فيقولُ تعالى: قال موسى لأخيه هارونَ: أيُّ شيءٍ مَنعَك مِن اتِّباعي حين رأيتَهم ضلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ، أفعَصيتَ أمري؟ ثم أخَذَ موسى بلحيةِ هارونَ ورأسِه يجرُّه إليه، فقال له هارونُ مُستَعطِفًا: يا ابنَ أمِّي، لا تُمسِكْ بلِحيَتي ولا بشَعرِ رأسي، إنِّي خِفتُ إن تركْتُهم ولحِقْتُ بك أن تقولَ لي: فرَّقتَ بينَ بني إسرائيلَ، ولم تحفَظْ وصِيَّتي بحُسنِ رِعايتِهم!

يخبرُ الله تعالى عن موسَى عليه السلامُ أنَّه بعدَ أن انتهَى مِن سماعِ اعتذارِ أخيه هارونَ، اتَّجهَ إلى السَّامِريِّ أصلِ الفتنةِ، فسأَله موبخًا له: فما شأنُكَ يا سامِريُّ، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ؟ قال السَّامريُّ: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ، وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا، فأخذتُ بكَفِّي ترابًا مِن أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ، فألقيتُه على الحُليِّ الذي صَنَعتُ منه العِجلَ، فكان عِجلًا جَسَدًا له خُوارٌ، وكذلك زيَّنَت لي نَفسي.

قال موسى للسَّامريِّ: فاذهَبْ، فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تعيشَ منبوذًا قائلًا لكلِّ أحَدٍ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ، وإنَّ لك مَوعِدًا لعذابِك لن يُخْلِفَك اللهُ إيَّاه، وانظُرْ إلى مَعبودِك الذي أقمْتَ على عبادتِه، لنُحَرِّقنَّه في النَّارِ، ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه. إنَّما إلهُكم هو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، وَسِعَ عِلمُه كُلَّ شَيءٍ.

المحور الرابع: (99 –104) جزاء المعرضين عن القرآن الكريم. تضمن هذا المقطع إنباء النبي –ﷺ–بأخبار السابقين مما قصه عليه في كتابه الكريم، وتضمن بيان جزاء المعرضين عن الذكر الذين يحملون أوزارهم وحدهم يوم القيامة، وساء لهم حملا، وبيان كيفية حشرهم، وما يتسارون به بينهم من تذاكر قدر مدة لبثهم في الحياة الدنيا، وإقرارهم بسرعة مرورها حتى قال أعدلهم (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا).

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾﴿99﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: لما بدأت السورةُ بالحديثِ عن القرآنِ، وأنَّه لم ينزلْ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليشقَى به أو بسببِه. وكان مِن القرآنِ قصةُ موسَى عليه السلام وما يبدو فيها مِن رعايةِ الله وعنايتِه بموسَى وأخيه وقومِه– أعقَب السياقَ على القصةِ بالعودةِ إلى القرآنِ ووظيفتِه، وعاقبةِ مَن يُعرِض عنه.

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ) أي: كما قَصَصْنا عليك –يا مُحَمَّدُ– قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِه، وأخبارَ بني إسرائيلَ مع موسى؛ كذلك نقصُّ عليك مِن الأخبارِ الماضيةِ التي سَبَقَت مِن قَبلِك، فلم تُشاهِدْها. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ «مِن» في قولِه مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ للتبعيض، ويُفهَمُ مِن ذلك أنَّ بَعضَهم لم يُقصَصْ عليه خَبَرُه).

كما قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود: 49].

وقال سُبحانَه: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [هود: 120].

وقال عزَّ وجلَّ: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) [يوسف: 3].

وقال تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [غافر: 78].

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) أي: وقد أعْطَيْناك –يا محمَّدُ– مِن عِندِنا عطيَّةً نَفيسةً، وهي القرآنُ الكريمُ. موسوعة التفسير

ونُكِّرَ ذِكْرًا للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ.

قال الرازي: في قوله تعالى: (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) في تسميةِ القرآنِ بالذِّكرِ وُجوهٌ:

أحدُها: أنه كتابٌ فيه ذِكرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِن أمرِ دينِهم ودنياهم.

وثانيها: أنَّه يذكِّرُ أنواعَ آلاءِ الله تعالى ونعمائِه، ففيه التذكيرُ والمواعِظُ.

وثالثها: فيه الذِّكرُ والشَّرَفُ لك ولِقَومِك على ما قال: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) [الزخرف: 44].

كما قال تعالى: (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) [آل عمران: 58].

وقال سُبحانَه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) [الأنبياء: 50].

وقال تبارك وتعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: 29].

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾﴿100﴾

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا) أي: مَن أعرَضَ عن القُرآنِ، فلم يؤمِنْ به، ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ إثمًا عظيمًا. موسوعة التفسير

قال الشِّنقيطي: (قد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله على أنَّ المجرمينَ يأتونَ يوم القيامة يحمِلونَ أوزارَهم، أي: أثقالَ ذنوبِهم على ظهورِهم... المرادُ بذلك الوِزرِ المحمولِ: أثقالُ ذُنوبِهم وكُفرِهم، يأتونَ يومَ القيامة يحملونَها، سواءٌ أقُلْنا: إنَّ أعمالَهم السيئةَ تتجسَّمُ في أقبحِ صورةٍ وأنتَنِها، أو غيرَ ذلك).

قال السعدي: يجبُ على الأمَّةِ تلَقِّي القرآنِ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ والتَّعظيمِ، وأن يُهتدَى بنُورِه إلى الصِّراطِ المستَقيمِ، وأن يُقبِلوا عليه بالتعَلُّمِ والتَّعليمِ. وأمَّا مُقابلَتُه بالإعراضِ، أو ما هو أعظمُ منه مِن الإنكارِ؛ فإنَّه كُفرٌ لهذه النِّعمةِ، ومَن فعَلَ ذلك فهو مُستَحِقٌّ للعقوبةِ.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾﴿101﴾

(خَالِدِينَ فِيهِ) أي: ماكِثينَ في جزاءِ هذا الوزرِ؛ في النَّارِ، لا يَخرُجونَ منها. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (خَالِدِينَ فِيهِ أي: في وِزرِهم؛ لأنَّ العذابَ هو نفسُ الأعمالِ، تنقَلِبُ عذابًا على أصحابِها، بحَسَبِ صِغَرِها وكِبَرِها).

(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) أي: وبِئسَ للمُعرِضينَ عن القُرآنِ حِملُهم الثَّقيلُ مِن الآثامِ يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وساءَ ذلك الحملُ والثقلُ مِن الإثمِ يومَ القيامةِ حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءَهم ذلك، وقد أوردهم مهلكةً لا منجَى منها).

كما قال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) [الأنعام: 31].

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾﴿102﴾

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أي: وذلك يومَ يُنفَخُ في القَرْنِ بأمرِ الله، فيُحيي سبحانَه الموتَى بتلك النَّفخةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر: 68].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القَرنِ القَرنَ، وحنَى جَبهَتَه، وأصْغَى سَمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ فينفُخَ، قال المسلِمونَ:

فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا)) وربَّما قال سُفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا)).

تنبيهٌ: قال ابنُ حَجَر: (اشتَهَر أنَّ صاحِبَ الصورِ إسرافيلُ عليه السَّلامُ، ونقل فيه الحليمي الإجماعَ... وجاء أنَّ الذي ينفُخُ في الصورِ غَيرُه... فإن ثبَت حُمِلَ على أنَّهما جميعًا يَنفُخانِ، ويؤيِّدُه ما أخرجَه هنَّاد بن السري في كتابِ الزهدِ بسَنَدٍ صَحيحٍ لكِنَّه موقوفٌ على عبد الرَّحمنِ ابن أبي عَمرةَ قال: «ما مِن صَباحٍ إلَّا ومَلَكانِ مُوَكَّلانِ بالصُّورِ»، ومن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ ضَمرةَ مِثلُه، وزاد: «ينتظرانِ متى يَنفُخانِ»، ونحوُه عند أحمدَ مِن طريق سُلَيمانَ التيمي عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «النَّافِخانِ في السَّماءِ الثانيةِ رأسُ أحَدِهما بالمشرِقِ ورِجلاه بالمغرِبِ -أو قال بالعكس- ينتَظِرانِ متى يُؤمَرانِ أن يَنفُخَا في الصُّورِ فيَنفُخا»، ورجالُه ثِقاتٌ، وأخرجه الحاكمُ من حديث عبدِ الله بن عمرٍو بغيرِ شَكٍّ، ولابن ماجه والبزَّار من حديثِ أبي سعيدٍ رَفَعَه: «إنَّ صاحِبَي الصورِ بأيديهما قَرنانِ يُلاحِظانِ النَّظَرَ متى يؤمَرانِ»). ((فتح الباري))

(وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) أي: ونحشُرُ الكافِرينَ والمشرِكينَ يومَ القيامةِ زُرقًا. موسوعة التفسير

قال السعدي: (أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا، والمجرمون يحشرون زرقا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش).

وقال ابن عاشور: (والزرقُ: جمع أزرقَ، وهو الذي لونُه الزرقةُ... وهو في جلدِ الإنسانِ قبيحُ المنظرِ؛ لأنَّه يشبهُ لونَ ما أصابَه حرقُ نارٍ. وظاهرُ الكلام أنَّ الزرقةَ لونُ أجسادِهم، فيكونُ بمنزلةِ قولِه: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) [آل عمران: 106])

قال القرطبي: والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه؛ أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾﴿103﴾

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) أي: يتهامَسُ المجرِمونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ سِرًّا: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ. موسوعة التفسير

قال البيضاوي: (يَستقصِرونَ مُدَّةَ لُبثِهم فيها؛ لزوالِها، أو لاستِطالتِهم مُدَّةَ الآخرةِ، أو لتأسُّفِهم عليها لَمَّا عاينوا الشَّدائدَ، وعَلِموا أنَّهم استحَقُّوها على إضاعتِها في قضاءِ الأوطارِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ).

قال الألوسي: (ومرادُهم مِن هذا القَولِ استِقصارُ المدَّةِ، وسُرعةُ انقِضائِها، والتَّنديمُ على ما كانوا يزعُمونَ؛ حيثُ تبيَّن الأمرُ على خلافِ ما كانوا عليه مِن إنكارِ البَعثِ وعَدِّه من قبيلِ المحالاتِ، كأنَّهم قالوا: قد بُعِثتُم وما لَبِثتُم في القبرِ إلَّا مُدَّةً يسيرةً، وقد كنتُم تَزعُمونَ أنَّكم لن تقوموا منه أبدًا).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾﴿104﴾

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) أي: نحنُ أعلَمُ منهم بما يقولُ بَعضُهم لبعضٍ، ونَسمَعُ تناجيَهم، لا يخفَى علينا منه شيءٌ. موسوعة التفسير

(إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) أي: حينَ يَقولُ أعقَلُهم، وأعلَمُهم، وأعدَلُهم قَولًا، وأقرَبُهم إلى التَّقديرِ: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا يَومًا واحِدًا. موسوعة التفسير

وقال الشوكاني: (نسبةُ هذا القَولِ إلى أمثَلِهم؛ لِكَونِه أدَلَّ على شِدَّةِ الهَولِ، لا لِكَونِه أقرَبَ إلى الصِّدقِ).

وقال السعدي: (والمقصودُ مِن هذا الندمُ العظيمُ، كيف ضيَّعوا الأوقاتَ القصيرةَ، وقطعوها ساهينَ لاهينَ، معرضينَ عما ينفعُهم، مقبلين على ما يضرُّهم، فها قد حضر الجزاءُ، وحقَّ الوعيدُ، فلم يبقَ إلا الندمُ، والدعاءُ بالويلِ والثبورِ).

كما قال تعالى: (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [المؤمنون: 112 - 114].

قال ابن القيم: فهذه الآيات فيها كفايةٌ في قِصَرِ الأمَلِ، وهو العلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسُرعةِ انقضاءِ مُدَّةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنَّه يَبعَثُه على مُغَافَصةِ (مُغالَبة) الأيَّامِ، وانتهازِ الفُرَصِ التي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ومبادرةِ طَيِّ صحائفِ الأعمالِ، ويُثيرُ ساكنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفرِه، وتدارُكِ الفارطِ، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويُرَغِّبُه في الآخرةِ، فيقومُ بقَلبِه إذا داوَمَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ شاهِدٌ مِن شواهِدِ اليَقينِ، يُريه فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقِلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ منها إلَّا كما بَقِيَ مِن يومٍ صارت شَمسُه على رُؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خَرَجَ صاحِبُه يتلَقَّاه، فكُلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقِيَا سريعًا. مدارج السالكين

من الناس من ذهبت عليه الليالي والأيام سدى، ومرت عليه الشهور والأعوام ضياعا وهملا، لا يعتبر بذهابها ومرورها، ولا يتفكر فيها وأنها تقربه من الدار الآخرة، وتبعده من الدار الدنيا.

اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: "شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ" صحيح الترغيب

أرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه إلى اغتنامِ الفُرَصِ في الحياةِ؛ للعمَلِ للآخِرةِ بِمَلْءِ الأوقاتِ بالطاعاتِ؛ لأنَّها هي عُمرُ الإنسانِ في الدُّنيا، وذَخيرتُه في الآخرةِ. الدرر السنية

المحور الخامس: (105 –112) مشاهد يوم القيامة. تضمن هذا المقطع الإجابة على أسئلة المشركين بشأن الجبال، وبيان حالها يوم القيامة وحال الناس يوم القيامة، من اتباعهم الداعي إلى الحشر، وخشوع الأصوات للرحمن، وانقطاع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا، وخضوع الوجوه للحي القيوم، وجزاء الظالمين، وثواب المحسنين، فهو سبحانه لا يظلم أحداً.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾﴿105﴾

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) أي: ويسألُك قَومُك عن الجِبالِ -يا محمَّدُ- ما حالُها يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

(فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) أي: فقُلْ لهم: يُزيلُ اللهُ الجبالَ يومَ القيامةِ مِن أماكِنِها، ويَدُكُّها دكًّا، ويُفَتِّتُها ثمَّ يُطَيِّرُها في الهواءِ. موسوعة التفسير

من يستطيع نسف الجبال في لحظة قادر أن يزيل همك في لحظة! روائع القرآن

التعبير بالنسف للجبال بعد التعبير بنسف العجل دلالة على قدرة الله الذي ينسف الجبال نسفاً، وعجز العجل عن دفع النسف عنه، فكانت هذه القدرة وذلك العجز دليل على استحقاق الله تعالى بالألوهية. (موسوعة التفسير الموضوعي)

قال الشنقيطي: بيَّنَ الله تعالى الأحوالَ التي تصيرُ إليها الجِبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه، فبَيَّنَ أنَّه ينزِعُها مِن أماكِنِها، ويحمِلُها فيدُكُّها دكًّا، وذلك في قَولِه: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) [الحاقة: 13- 14]، ثمَّ بيَّنَ أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قَولِه: (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) [التكوير: 3]... ثمَّ بَيَّنَ أنَّه يُفتِّتُها ويَدقُّها، كقَولِه: (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)[الواقعة: 5]... ثمَّ بيَّنَ أنَّه يصَيِّرُها كالرَّملِ المتهايلِ، وكالعِهنِ المنفوشِ، وذلك في قَولِه: (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا) [المزمل: 14]، وقولِه تعالى: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)[المعارج: 8، 9]... ثمَّ بَيَّنَ أنَّها تَصيرُ كالهباءِ المنبَثِّ في قَولِه: (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) [الواقعة: 5- 6]، ثمَّ بَيَّنَ أنَّها تصيرُ سرابًا، وذلك في قولِه: (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) [النبأ: 20]... وبيَّنَ أنَّه يَنسِفُها نسفًا في قولِه هنا: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾﴿106﴾

(فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) أي: فيَترُكُ اللهُ مواضِعَ الجبالِ أرضًا سهلةً مُستويةً، لا نباتَ فيها ولا بناءَ ولا ارتفاعَ. موسوعة التفسير

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾﴿107﴾

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) أي: لا ترى -أيُّها النَّاظِرُ- في الأرضِ يوم القيامةِ مَيلًا عن الاستواءِ؛ لا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، ولو كان ذلك يسيرًا. موسوعة التفسير

عِوَجًا: أي: هبوطًا أو مَيلًا، وأصل (عوج): يدلُّ على مَيلٍ في الشَّيءِ.

أَمْتًا: أي: ارتفاعًا، والأمتُ: المكانُ المرتَفِعُ، وأصلُ الأمتِ: أن يَغلُظَ مكانٌ، ويَرِقَّ مكانٌ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾﴿108﴾

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ) أي: في ذلك اليومِ الذي تقَعُ فيه تلك الأحوالُ والأهوالُ يتَّبِعُ النَّاسُ -حين يَخرُجونَ مِن قُبورِهم- صوتَ المَلَكِ الذي يدعوهم جميعًا بلا استثناءٍ إلى مَوقِفِ القيامةِ، فيَقصِدونَه مِن كُلِّ ناحيةٍ، لا يَنحَرِفونَ ولا يَزيغونَ عنه، بل يتوجَّهونَ صَوبَ ناحيتِه وصَوتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) [القمر: 6 - 8].

وقال سُبحانَه: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) [ق: 41 - 44].

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) أي: وسكَنَت أصواتُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للرَّحمنِ خُضوعًا له وخَوفًا وهَيبةً منه، مُنتَظِرينَ لحُكمِه، فلا تَسمَعُ لهم -أيُّها السَّامِعُ- إلَّا صَوتًا خَفيضًا لوطءِ أقدامِهم، أو لحديثِهم الخافِتِ. موسوعة التفسير

❍ يوم عظيم تتجلى فيه عظمة الله وتفرده بالملك والحكم، ويظهر فيه ضعف الخلق وخضوعهم لربهم جميعا. محمد الربيعة

❍ الأصوات التي ملأت الدنيا بضجيجها وغطرستها سيأتيها يوم تخنس ولا تسمع منهم حرفا! مها العنزي

❍ كل هذا الجلال والكبرياء، وفي هذا المشهد المهيب العظيم المتفرد بالملك اختار الله جل وعلا له اسم (الرحمن).. العظمة برحمةٍ والجلال بودٍّ ...عادل صالح السليم

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾﴿109﴾

(يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) أي: في يَومِ القيامةِ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ أحدًا مِن الناسِ لا الشَّافِعَ ولا المشفوعَ له، إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشَّافِعِ والمشفوعِ له. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) [سبأ: 23].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) [النجم: 26].

وقال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) [الأنبياء: 28].

وقال سُبحانه: (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) [النبأ: 38]

قال ابن القيم: أخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفَعُ إلَّا بعد أن يرضى اللهُ -سُبحانَه- قَولَ المشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافِعِ فيه، على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ، فأمَّا المشركُ فإنَّه لا يَرتَضيه ولا يرضَى قولَه، فلا يَأذَنُ للشُّفَعاءِ أنْ يَشفَعوا فيه؛ فإنَّه سُبحانَه علَّقَها بأمرَينِ: رِضاه عن المشفوعِ له، وإذْنِه للشَّافعِ، فما لم يُوجَدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجَدِ الشَّفاعةُ.

قال الرازي: هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ في حَقِّ الفُسَّاقِ؛ لأنَّ قَولَه: وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا يكفي في صدقِه أن يكونَ الله تعالى قد رضي له قولًا واحدًا من أقوالِه، والفاسقُ قد ارتضى اللهُ تعالى قولًا واحدًا مِن أقوالِه وهو: شهادةُ أن لا إله إلا الله، فوجَب أن تكونَ الشفاعةُ نافعةً له؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النفي إثباتٌ، وذلك بناءً على أنَّ الآيةَ محمولةٌ على المشفوعِ له.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾﴿110﴾

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها. موسوعة التفسير

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) أي: وهم لا يحيطُون بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم علمًا. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين رحمه الله: دلالةٌ على نفيِ الإحاطةِ بالله عِلمًا -وذلك بناءً على أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى الله- وهذا شاملٌ للإحاطةِ بذاتِه وصفاتِه، فلا يَعلَمُ حقيقةَ ذاتِه وكُنْهَها إلَّا هو سُبحانه وتعالى، وكذلك صِفاتُه، فاللهُ تعالى أجَلُّ وأعظَمُ مِن أن تُحيطَ به الأفكارُ.

كما قال تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) [البقرة: 255].

وقال سُبحانه: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: 103].

وقال عزَّ وجلَّ: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف: 109].

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾﴿111﴾

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) أي: وخضَعت وذلَّت واستسلَمَت وجوهُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للهِ ذي الحياةِ الكامِلةِ -الذي لا يموتُ ولا ينامُ-، القائِمِ بنفسِه، المقيمِ لغيرِه.

اسمه تبارك وتعالى (الحي) فيه إثبات الحياة صفة لله، وهي حياة كاملة ليست مسبوقة بعدم، ولا يلحقها زوال وفناء، ولا يعتريها نقص وعيب، حياة تستلزم كمال صفاته سبحانه. واسمه تبارك وتعالى (القيوم) فيه إثبات القيومية صفة لله، وهي كونه سبحانه قائماً بنفسه مقيماً لخلقه، فهو اسم دال على أمرين: ❶ كمال غنى الرب سبحانه، فهو القائم بنفسه، الغني عن خلقه. ❷ كمال قدرته وتدبيره لهذه

المخلوقات، فهو المقيم لها بقدرته سبحانه، وجميع المخلوقات فقيره إليه. فقه الأسماء الحسنى، لعبد الرزاق البدر.

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) أي: وقد خَسِر مَن أتَى يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ شِركًا أو كُفرًا بالله، أو عمَلًا بمَعصيتِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عطية: (الظُّلمُ يعُمُّ الشركَ والمعاصيَ، وخَيبةُ كلِّ حاملٍ بقَدرِ ما حَمَل من الظُّلمِ، فخيبةُ المشرِكِ على الإطلاقِ، وخيبةُ العاصي مُقَيَّدةٌ بوقتٍ وحَدٍّ في العقوبةِ).

كيف يرجو الظالم توفيقاً ونصراً، في حياته وبعد وفاته، وقد قال الله في كتابه الكريم:(وقد خاب من حمل ظلماً). عايض المطيري

كم من الذين سلبوا حقوق ناس ظلما وحسدا ولم يجد المظلوم معهم حيله لكن الله سيكون حسبهم يوم يجعل الولدان شيبا. مها العنزي

قال أحد السلف رحمه الله: "بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد". روائع القرآن

هل تدرون من أخيب الناس؟ إنه الظالم الذي يحمل ظلمه على ظهره في الدنيا والقبر والآخرة أمام الله جل جلاله. روائع القرآن

المظلوم مهما بغي عليه وسلب حقه أمام عينيه فلا ينبغي أن يضيق صدره لأن من تكفل بنصره هو الله ... فلتقر عينه. مها العنزي

كما قال تعالى: (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: 254].

وقال سُبحانَه: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) [المائدة: 72].

وقال عزَّ وجلَّ: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: 13].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ)). رواه مسلم

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿112﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ يومِ القيامةِ، ختَمَ الكلامَ فيها بشَرحِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) أي: ومَن يعمَلْ مِن صالحاتِ الأعمالِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ وبِوَعدِه ووَعيدِه، غيرُ مُشرِكٍ به؛ فلا يخافُ ظُلمًا بأن يُزادَ في سيئاتِه، ولا هَضمًا بأن يُنقَصَ من حَسَناتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: 40].

وقال سُبحانَه: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: 110].

المحور السادس: (113 – 114) وضوح القرآن لاتباعه. تضمن هذا المقطع تقرير عروبة القرآن، وبيان الحكمة من تضمينه الوعيد، ثم إرشاد الله نبيه إلى كيفية تلقي القرآن، وأمره بطلب زيادة العلم.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾﴿113﴾

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أي: وكذلك أنزَلْنا القرآنَ بلُغةِ العَرَبِ واضِحًا؛ لتُفهَمَ معانيه. موسوعة التفسير

(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) أي: وكرَّرنا في القُرآنِ آياتِ التَّخويفِ والتَّهديدِ بأساليبَ مُتَنوِّعةٍ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أي: نوَّعناها أنواعًا كثيرةً؛ تارةً بذكرِ أسمائِه الدالةِ على العدلِ والانتقامِ، وتارةً بذكرِ المثلاتِ التي أحلَّها بالأممِ السابقةِ، وأمر أن تعتبرَ بها الأممُ اللاحقةُ، وتارةً بذكرِ آثارِ الذنوبِ، وما تكسبُه مِن العيوبِ، وتارةً بذكرِ أهوالِ القيامةِ، وما فيها مِن المزعجاتِ والمقلقاتِ، وتارةً بذكرِ جهنمَ وما فيها مِن أنوعِ العقابِ وأصنافِ العذابِ، كلُّ هذا رحمةٌ بالعبادِ).

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) أي: أنزَلْنا القرآنَ عربيًّا وصرَّفْنا فيه الوعيدَ للنَّاسِ؛ ليتَّقوا اللهَ أو ليَتَذكَّروا. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثير: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي: يَتْرُكونَ المآثِمَ والمحارِمَ والفواحشَ، أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا وهو إيجادُ الطَّاعةِ وفعلُ القرباتِ).

وقال السمعاني: (وقولُه: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا أي: يحدِثُ لهم القرآنُ اعْتِبارًا؛ فيعتبرونَ به. وقالَ بعضُهم: يحدِثُ لهم الوعيدُ ذكرَ العذابِ؛ فينزجرونَ عن المعاصي. وقال بعضُهم: أو يحدِثُ لهم ذكرًا أي: شرفًا لإيمانِهم بِه).

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾﴿114﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا عظَّمَ الله تعالى أمْرَ القرآنِ؛ أردَفَه بأن عظَّمَ نَفسَه؛ تنبيهًا على ما يلزَمُ خَلْقَه مِن تَعظيمِه، فقال

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) أي: فتعاظَمَ اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وارتفَعَ على جميعِ خَلْقِه، وتنزَّه وتقدَّسَ عن النَّقائِصِ، المِلكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ

المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فذاتُه الحقُّ، وقولُه الحقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كلُّها حقٌّ، وجزاؤُه المستلزمُ لشرعِه ودينِه ولليومِ الآخرِ حقٌّ. موسوعة التفسير

❍الملك لله هو المتصرف المتحكم بيده الخير يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء وكلنا عبيد صاغرون لعظمته سبحانه. مها العنزي

كما قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [الحج: 62].

وقال سُبحانَه: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الملك: 1].

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) أي: ولا تُبادِرْ -يا محمَّدُ- بتلاوةِ وحفظِ ما يَقرَؤُه عليك جبريلُ مِن قَبلِ أن يَنتهيَ مِن تلاوتِه عليك، بل استَمِعْ له حتى يفرُغَ مِن قِراءتِه؛ فإنَّ اللهَ قد ضَمِنَ لك جمعَه في صَدرِك، وقراءتَك إيَّاه. موسوعة التفسير

❍تمهل قليلا، على رسلك، فلربما تجد في طيات حروفه رسالة خاصة بك تطمئن قلبك وتهدئ من روعك فمرسلها العليم بحالك. مها العنزي

قال السعدي: يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ الأدَبُ في تلقِّي العِلمِ، وأنَّ المستَمِعَ للعِلمِ ينبغي له أن يتأنَّى ويَصبِرَ حتى يَفرُغَ المملي والمعَلِّمُ مِن كلامِه المتَّصِلِ بعضُه ببعضٍ، فإذا فرَغ منه سألَ إن كان عندَه سؤالٌ، ولا يُبادِرَ بالسُّؤالِ وقَطعِ كَلامِ مُلقِي العِلمِ؛ فإنَّه سببٌ للحِرمانِ، وكذلك المسؤولُ ينبغي له أن يستمليَ سُؤالَ السائِلِ، ويَعرِفَ المقصودَ منه قبلَ الجَوابِ؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لإصابةِ الصَّوابِ.

قال البقاعي: هذا دليلٌ على أنَّ التأنِّيَ في العِلمِ بالتَّدبُّرِ وبإلقاءِ السَّمعِ أنفَعُ مِن الاستعجالِ المتعِبِ للبالِ، المكَدِّرِ للحالِ، وأعوَنُ على الحِفظِ، فمن وعى شيئًا حقَّ الوعيِ حَفِظَه غايةَ الحِفظِ.

كما قال تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. [القيامة: 16 - 19].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا نزَلَ عليه الوحيُ حَرَّك به لسانَه، يريدُ أن يحفَظَه، فأنزل الله: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [القيامة: 16]))).

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمْتَني مِنَ الوَحيِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: لَمَّا كانت عجَلَتُه صلَّى الله عليه وسلَّم على تلقُّفِ الوَحيِ، ومبادرتُه إليه تدُلُّ على محبَّتِه التامَّةِ للعِلمِ، وحِرصِه عليه؛ أمَرَه الله تعالى أن يسألَه زيادةَ العِلمِ.

قال ابن كثير: (قال ابنُ عيينةَ رحمه الله: ولم يزَلْ صلَّى الله عليه وسلَّم في زيادةٍ مِن العِلمِ حتى توفَّاه الله عزَّ وجلَّ).

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ إذا صلَّى الصُّبحَ حينَ يُسلِّمُ: ((اللهُمَّ، إني أسألُك عِلمًا نافِعًا، ورِزقًا طَيِّبًا، وعَمَلًا مُتَقبَّلًا)).

قال السعدي: أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَه زيادةَ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ خَيرٌ، وكَثرةُ الخيرِ مَطلوبةٌ، وهي مِنَ الله، والطَّريقُ إليها الاجتِهادُ والشَّوقُ للعِلمِ، وسؤالُ اللهِ والاستعانةُ به، والافتِقارُ إليه في كُلِّ وَقتٍ.

في قَولِه تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) دليلٌ على فَضْلِ العِلْمِ، فلم يَقُلْ -سُبحانَه- لِنَبِيِّه: «وقلْ ربِّ زدني مالًا»، بل قال له: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)، فكفى بهذا شرفًا للعلم أنْ أمَرَ نبَّيه أن يسألَه المزيدَ منه.

وقد قيل: (ما أمَر اللهُ رَسولَه بطَلَبِ الزِّيادةِ في شَيءٍ إلَّا في العِلمِ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.